المحاضرة الخامسة

الأصل الرابع عند المعتزلة: المنزلة بين المنزلتين

تمهيد

يُعدّ أصل المنزلة بين المنزلتين من أكثر أصول المعتزلة ارتباطًا بتاريخ نشأتهم وتطور خطابهم الكلامي؛ إذ نشأ في سياق الجدل حول الاسم والحكم اللذين يُطلقان على المسلم الذي يرتكب كبيرة. وقد رفض المعتزلة اختزال المسألة في ثنائية المؤمن والكافر، وقرروا أن مرتكب الكبيرة، ما دام مصرًّا عليها من غير توبة، يحتل منزلة بين المنزلتين: فلا يُعدّ مؤمنًا بالمعنى الكامل الذي يستلزم المدح والثواب، ولا يُحكم عليه بالكفر والخروج من الإسلام. [1]

أولًا: الخلفية التاريخية للمسألة

ظهرت مسألة حكم مرتكب الكبيرة في سياق الجدل الكلامي والسياسي المبكر حول حدود الإيمان وآثاره. فقد ذهبت الخوارج إلى تكفير مرتكب الكبيرة، في حين مالت المرجئة إلى إبقاء اسم الإيمان عليه، وتأجيل الحكم الأخروي إلى الله تعالى. وفي هذا السياق، قدّم المعتزلة صيغة وسطية تجمع بين الاعتراف بخطورة الكبيرة ورفض التكفير الدنيوي لمجرد ارتكابها.

وترتبط الرواية الأشهر حول نشأة هذا المبدأ بواصل بن عطاء وحلقته في مجلس الحسن البصري، غير أن المؤرخين ينبهون إلى أن تفاصيل هذه الرواية، فضلًا عن تفسير تسمية «المنزلة بين المنزلتين»، ليست محل اتفاق تام، الأمر الذي يقتضي عرضها بحذر ضمن سياقها التاريخي. [1] [3]

ثانيًا: دلالة المنزلة بين المنزلتين

لا يقصد المعتزلة بالمنزلة الوسطى منزلة ميتافيزيقية مستقلة بين الجنة والنار، كما لا يقصدون بها إخراج مرتكب الكبيرة من جماعة المسلمين. وإنما تتعلق المنزلة، في المقام الأول، بالاسم والحكم المترتبين على حاله. فمرتكب الكبيرة يوصف بالفسق، ويُعامل في الدنيا معاملة المسلم من حيث التوارث والدفن والمناكحة وسائر الأحكام العامة، لكنه لا يستحق اسم المؤمن الكامل الذي يقتضي المدح والثناء.

أما في الآخرة، فإذا مات مرتكب الكبيرة من غير توبة، فإنه يدخل النار وفق أصل الوعد والوعيد. وبذلك يميز المعتزلة بين ثلاثة مستويات مترابطة: مستوى دنيوي يبقى فيه مرتكب الكبيرة داخل الجماعة الإسلامية، ومستوى أخلاقي يوصف فيه بالفسق ولا يوصف بالإيمان الكامل، ومستوى أخروي يستحق فيه العقوبة إذا مات مصرًّا على ذنبه. ويُعدّ هذا التفكيك من أهم الجوانب التحليلية في أصل المنزلة بين المنزلتين. [1] [2]

ثالثًا: التمييز بين الكبيرة والكفر

يؤكد المعتزلة أن الفسق لا يساوي الكفر، وأن مرتكب الكبيرة لا يصير كافرًا بمجرد اقتراف الذنب. فالكفر، في تصورهم، يتضمن إنكار أصل من أصول الدين أو جحود أمر ثبت ثبوتًا يوجب العلم، أما الكبيرة فهي مخالفة عملية أو أخلاقية لا تستلزم بالضرورة إنكار الدين أو رفض أصوله.

ويهدف هذا التمييز إلى الحد من التوسع في التكفير، مع الحفاظ في الوقت نفسه على المسؤولية الأخلاقية وعدم التسوية بين الطاعة والمعصية. ومن ثم، فإن موقف المعتزلة يجمع بين حماية الانتماء الديني العام، والتشديد على القيمة الأخلاقية للعمل وآثاره.

رابعًا: صلة الأصل بالأصول المعتزلية الأخرى

يرتبط أصل المنزلة بين المنزلتين ببقية أصول المعتزلة ارتباطًا بنيويًا. فهو ثمرة مباشرة لأصل العدل؛ لأن إثبات مسؤولية الإنسان عن فعله يقتضي التمييز بين المطيع والعاصي، وعدم التسوية بينهما في الاسم والحكم. كما يرتبط بأصل الوعد والوعيد، لأن الحكم الأخروي على مرتكب الكبيرة يتحدد بحسب موقفه من التوبة والإصرار.

ويتصل الأصل كذلك بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ يحتاج المجتمع إلى تقويم السلوك المنحرف ومعالجة آثاره، من غير أن يتحول هذا التقويم إلى تكفير شامل أو إلى فوضى في إصدار الأحكام. ومن هنا يظهر أن المنزلة بين المنزلتين ليست قضية اصطلاحية منفصلة، بل جزء من البناء العقدي والأخلاقي العام للمعتزلة.

خامسًا: القيمة العلمية والحدود التاريخية

تكمن أهمية هذا الأصل في أنه قدّم حلًا تحليليًا لمشكلة شديدة الحساسية، تتمثل في كيفية الجمع بين الانتماء الديني والإدانة الأخلاقية للفعل. فقد فصل المعتزلة بين الإسلام بوصفه انتماءً وأحكامًا دنيوية، والإيمان بوصفه استحقاقًا للمدح والثواب، والفسق بوصفه وصفًا أخلاقيًا للسلوك.

ومع ذلك، ظلت النتائج الأخروية الصارمة التي رتبوها على الإصرار على الكبيرة من غير توبة موضع نقد من المرجئة والأشاعرة وغيرهم. كما اختلفت الفرق الكلامية في تعريف الكبيرة وحدودها، وفي مدى إمكان العفو عن مرتكبها. لذلك ينبغي فهم أصل المنزلة بين المنزلتين بوصفه إجابة تاريخية وكلامية عن إشكالية محددة، لا بوصفه حكمًا منفصلًا عن سياق نشأة علم الكلام وتعدد مدارسه.

خاتمة

يمثل أصل المنزلة بين المنزلتين تصورًا معتزليًا ينظم العلاقة بين الإيمان والعمل، وبين الاسم والحكم، وبين الانتماء الديني والمسؤولية الأخلاقية. فهو يرفض تكفير المسلم لمجرد ارتكابه المعصية، ويرفض في الوقت نفسه منحه وصف الإيمان الكامل من غير قيد. ومن خلال هذا المبدأ، سعى المعتزلة إلى بناء موقف يجمع بين الحفاظ على وحدة الجماعة الإسلامية، والتأكيد على جدية السلوك الأخلاقي وآثاره، وهو ما جعله حجرًا أساسيًا في تاريخ المدرسة المعتزلية.

مصطلحات محورية

المصطلح	الدلالة في سياق المحاضرة
المنزلة بين المنزلتين	وصف مرتكب الكبيرة بأنه ليس مؤمنًا كاملًا ولا كافرًا خارجًا من الإسلام.
الكبيرة	ذنب عظيم يترتب عليه حكم أخلاقي وأخروي وفق التصور المعتزلي.
الفسق	وصف لمرتكب الكبيرة، مع بقاء انتمائه إلى جماعة المسلمين في الدنيا.
الإيمان الكامل	حالة تستلزم، في تصور المعتزلة، استحقاق المدح والثواب.
التكفير	الحكم بالخروج من الإسلام، وهو ما رفضه المعتزلة في حق مرتكب الكبيرة لمجرد ذنبه.

المراجع

[1] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، باب المنزلة بين المنزلتين، نسخة رقمية.

[2] Shalahudin Kafrawi، “Muʿtazilites, Muʿtazila”، Encyclopedia of Islam and the Muslim World، مدخل متاح عبر Encyclopedia.com.

[3] Daniel Gimaret، “Muʿtazila”، Encyclopaedia of Islam, Second Edition، نص إلكتروني متاح عبر Islamic Philosophy Online.